مجلة الإحياء، المجلد: 19، العدد: 23، ديسمبر 2019، ص - ص: 91 – 108
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

البناء الحجاجي لخطبة النبي ﷺ في الأنصار

The Argumentative Structure of the Sermon of the Prophet (pbuh) in Al Ansar

طالب دكتوراه محمد بن عمارة[1] **أ.د نور الدين دحماني**
Mohamed27benamara@gmail.com
جامعة عبد الحميد ابن باديس - مستغانم

تاريخ الإرسال: 2019/04/28 تاريخ القبول: 2019/11/19

ملـــــخص:

تهدف هذه المقالة إلى الكشف عن فاعلية الحجاج في النص الخطابي باعتباره عملية اتصالية، قوامها الحجة المنطقية وغايتها إقناع الآخر ودفعه نحو الإنجاز، وقد ركزتُ في هذه الدراسة على بُعدين أساسيين هما:

1- مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية واللغوية والتداولية مع التطرق لآلياته وتقنياته الخطابية التي تحقق عملية الإقناع والتداوّل.
2- البعد الإجرائي المتمثل في دراسة حجاجية لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار باعتبارها نصاً حجاجيا وسياسياً وظُفت فيه عدّة تقنيات خطابية تروم إقناع المتلقي واستمالته وتوجيهه، وحمله على الإذعان.

الكـــــلمات المفتاحية: البلاغة؛ اللغة؛ الخطابة؛ الحجاج؛ الإقناع؛ التداول؛ النبي ﷺ؛ الأنصار.

[1] المؤلف المرسل

Abstract

The old Arab rhètoric raised a number of criticism in the light of contemporary western rhetorical research most notably the extent of the legitimacy of therefutation of the argumentations of the old Arab rhètoric. Which was excerpted from the genre of poetry as the transcendent genre in Arabe culture on different genres and literary works. Therefore, this intervention attempts to bring about the discussion on genre on the one hand. On the other hand, it advocates the systematic imbalance Arabic rhetorics suffered from in generalizing its various procedural mechanisms on literary genres with regards to taking account the rating by applying the theory of literary text when dealing with rhetoric and taking into account the genres to which they belong this is what we will try to address in the practical part. the title Arabic rhetorics between poetic study. Rhetoric in the prophet Mohamed peace be upon him.

Key words: Rhetoric; language; Public speaking; argument; persuasion; circulation ; Prophet ;Al Ansar.

مقدمة

تتناول هذه المقالة محاولة في التحليل البلاغي الحجاجي للخطابة في المدونات التراثيّة. وقد وقع الاختيار على خطبة النبي صلى الله عليه وسلّم في الأنصار نظراً للأبعاد التداولية الحجاجية التي توفرت عليها هذه الخطبة، فجاءت هذه الورقة البحثية لرفع اللثام عن الآليات البلاغية والمنطقية اللغوية المستعملة من قِبل النبي صلى الله عليه وسلّم في خطبته، آليات ساعدته على تحقيق مجمل أهدافه الحجاجية المتمثلة في إقناع الانصار بقسمته التي قسمها في الغنائم، وقد استوجب لمقام البحث الاعتماد على المنهج الحجاجي التداولي اللساني في قراءة هذه الخطبة، مع العمل على كشف مختلف الآليات الإقناعية[1] persuasion والطاقات الاستدلالية التي استعان به النبي ﷺ في تحقيق عمليتي

الإقناع والتداول، وعلى ضوء هذا التمهيد، جاءت المقالة لتجيب على جملة من الأسئلة والإشكاليات من بينها:

- ما هو مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية واللغوية المعاصر؟
- ما هي الآليات الحجاجيّة التي طرحتها المقاربة البلاغية واللغوية في قراءة مختلف الخطابات الطبيعيّة؟
- هل النص التراثي هو نص حجاجي؟
- ماهي الآليات الحجاجيّة التي استعان بها النبي ﷺ في خطبته في الأنصار؟
- هل حقّق النبي صلى الله عليه وسلّم أهدافه الحجاجيّة؟

1- مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية واللغوية المعاصرة:

قد عرّف بيرلمان وتيتكاه الحجاج argumentation بعدّة مفاهيم، انطلاقا من موضوعه الذي هو (درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم)[2] مفهوم ارتبط بمختلف أنواع الحجج المودعة في الخطاب،والتي تعمل على إقناع persuasion المتلقي بما يعرض عليه من أفكار، أو تدعيم تسليمه بأفكار مسبقة عنده كانت محلّ شكٍ، مفهوم ركزّ فيه بيرلمان على ضرورة البعد العقلاني لحجاج وعدم اعتباطيته وتلاعبه بعواطف المخَاطب، لأن الحجاج في نظرهما معقولية وحرية، يستطيع المتلقي من خلالها الاعتراض على ما يُعرض عليه من أفكار، وذلك عكس الاستدلال الصارم الذي يجعل المخاطب في حالة ذهول وخضوع واستلاب[3] ويعرفه في موضع آخر انطلاقا من بُعده التداولي pragmatique [4]، بقوله (غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع حجاج ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تُقوِى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب – إنجازه أو الإمساك عنه- أو ما وُفِق على الأقل في جعل السامعين مهيئين إلى ذلك العمل في اللحظة المناسبة)[5]، تعريف ركزّ فيه بيرلمان على الغائية لا

الماهية، إذْ نلمحه يقرن الحجاج بالإقناع الذي يُعد جوهر العملية الحجاجية وغايتها المنشودة، والذي من خلالها يُقدم المتلقي على فعل ما أو يُمسك عنه، أو يتهيأ للقيام بعمل ما لذلك يُدرك الحجاج بوصفه مفهوما براغماتياً، انتقل به بيرلمان من دائرة الخطاب والتلفظ إلى دائرة ما ينتج عن الخطاب بدفع المخَاطب إلى الفعل والعمل. فالحجاج علاقة تخاطبية تفاعلية بين المخاطِب والمخاطَب مبنيُة على أسس عقلية طابعها العقلانية وحرية الاختيار.ويقول في موضع آخر (ليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثمّ اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ثمّ محاولة حيازة انسجامها الايجابي l adhésion positive والتحامها مع الطرح)[6] مفهوم ركّز فيه بيرلمان على ذهنية المتلقي، التي لا يستطيع المحاجج استمالتها بدون معرفة طبيعة تفكيرها ومواطن ضعفها.

وإن كانت رؤية بريلمان للحجاج رؤية بلاغية شبه منطقيّة، فقد تناوله أزفالد ديكرو من وُجهة لغوية، رأى من خلالها بأن اللغة تحمل في جوهرها وظائف حجاجية، تأتي من بنية الأقوال اللغوية، لا من مضمونها الإخباري[7] فهي بذلك تعالج ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تُمَثِل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه تجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يُوجه قوله وُجهة حجاجية ما[8]، فاللغة تكتسي قوتها الحجاجية من خلال العلائق التي تنشئها والتسلسل المنطقي التي تخضع له بفعل العقل الذي تستند إليه في بنيتها التركيبية.

ويتوفر الخطاب الحجاجي على بعض العلامات التي تحدّد وُجهته الحجاجية، وهاته العلامات هي عبارة عن آليات تشتغل داخل الخطاب بصور مختلفة، فتكون تارة عبارة عن عوامل حجاجية، أو روابط حجاجية، أو بعض الظواهر كالقسم أو الاستفهام أو التضمين أو الاقتضاء....إلخ[9] فالاهتمام في هذه المقاربة يكون مرّكزاً بدرجة كبيرة على الوسائل اللغوية، والإمكانات التي تتيحها اللغة الطبيعية للمتكلم والتي تساعده بدورها على توجيه خطابه نحو مقاصده التي

يبتغيها. فاللغة منطقها، أو ما يسمى بالقواعد الداخلية للخطاب الذي يعتمد على آليات تسلسلية استنتاجيه ترتيبية تهدف إلى التأثير والإقناع[10]

2- التحليل الحجاجي لخطبة النبي ﷺ:

نروم هنا لإبراز أهم المقومات التي ساهمت في تكوين بلاغة الخطبة النبوية، وقد رأينا أن نتخذ خطبة الرسول ﷺ في الأنصار يوم حنين متناً تمثيلياً يُتيح لنا الكشف عن طبيعة البلاغة التي تُفرزها الخطب النثرية، التي تخلّقت في سياقات تواصلية تتسم بالوظيفية والقصدية، وهذا ما دفعنا إلى فحصها وتحليها وفق مقاربة بلاغية تتيح لنا الكشف عن مصادر بلاغتها الحجاجية، والكيفية التي انبنت بها آلياتها الإقناعية.

- **السياق التاريخي للخطبة:** إنّ بناء السياق في النظرية الحجاجية المعاصر ضرورة لا تنفصل عن راسة تشكلات النص وتقياته الخطابية، ولذلك رأينا أنه من الضروري إعادة بناء السياق التاريخي للخطبة،بناءً يتوافق مع الرؤية البلاغية المعاصرة، والتي تنادي بصياغة جديدة لسياقات النصوص القديمة، وذلك لاكتساب (معرفة جديدة بالمتكلم والمخاطب وطبيعة العلاقة بينهما والسياق المكاني لتداول الخطاب)[11].

قال ابن هشام، حدثني زياد ابن عبد الله، قال، حدثنا ابن إسحاق، قال: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا، في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن للأنصار منها شيء، وجد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم، لقد لقيّ والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إنّ هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسّمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء[12].

إنّ لهذه الخطبة سياقاً خاصاً أُنتجت في ضوئه، سببه أنّ الرسول ﷺ لمَّا قضى من غزوة حنين وجاء وقت تقسيم الغنائم التي غنِموها من المشركين، أعطى للمؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم ويتألّف بهم قومهم[13] إلى الإسلام، ولم يُعطِ للأنصار شيئاً من تلك الغانم التي غنِموها من المشركين، فوجد الأنصار في أنفسهم شيئا من ذلك، ونزغ الشيطان إلى قلوبهم، ودفعوا بزعيمهم سعد بن عبادة للتدخل عند رسول الله ﷺ فيما صنع، فإنتاج الخطبة تمّ في سياق عام يتشكلّ من النبي ﷺ باعتباره (المرسل) وسعد بن عبادة (كوسيط ومتلقي الأول) والمؤلفة قلوبهم (باعتبارهم مساهمين في صناعة الخطبة ومحورها) والأنصار (كمتلقين للخطاب).

ـ **الخطبة:** قال النبي ﷺ لسعد بن عبادة اجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد وجمع الأنصار في تلك الحظيرة...قال النبي صلى الله عليه وسلّم: مقالةً بلغتني عنكم، وجِدةً وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم..قالو بلى الله ورسوله أَمَنَّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني با معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نُجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل، قال صلى الله عليه وسلّم: أما والله لو شئتم لقلْتم، فلصدَقْتُم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذِبا فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوما ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم ؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت إمرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الناس شعباً لسلكت شِعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالو: رضينا برسول الله قِسما وحظاً، ثمّ انصرف رسول الله وتفرقوا[14].

حجج الإيتوس المدرجة في الخطبة (الخطيب الرسول ﷺ): تستمد بعض الخطب قوتها الحجاجية من الصورة الحسنة التي يرسمها الخطيب لنفسه، (ذلك أنّ الصورة التي يُكونها المتلقي عن القائل تساهم في تعضيد القول وترفع من فعاليته الإقناعية)[15].

فالصورة التي قدّمها النبي ﷺ في هذه الخطبة أكسبته شرعية ومصداقية، جعلت من خطابه نافدا ومقنعاً، وذلك من خلال تذكير الأنصار بفضله عليهم، باعتباره كان سبباً في هدايتهم بعد ضلالهم، وغِناهم بعد فقرهم، وتآخيهم بعد أن كانوا أعداء، فهذا الفضل لا يمكن أن يُنكره الأنصار، فتسخير مثل هذه الإيتوسات يساعد على تحقيق المقاصد الإقناعية التي يرجوها النبي ﷺ، بالمقابل، وعلى سبيل الإيتوس التقابلي، قام النبي ﷺ بذكر فضل الأنصار عليه، وذلك من خلال نصرتهم إياهُ، وحمايته، وتصديقه، فقوته ﷺ مستمدّة من الله ومن الأنصار، فالإيتوس التقابلي يُبين عن عدم إنكار النبي لفضل الأنصار، ويمكن تلخيص الإيتوسات المستعملة في الخطبة:

- شخصية الخطيب - النبي ﷺ- باعتباره مؤيدًا ومؤزرا من عند الله، مكانة ساهمت في تلقي الخطاب وعدم معارضته، قبول يؤدي بالضرورة إلى تحقيق عملية التداول الإقناع.
- التذكير بفضله على الأنصار باعتباره كان سبباً في هدايتهم وتآخيهم.
- توظيف إيتوس تقابلي أقرّ من خلاله النبي ﷺ بفضل الأنصار عليه، فوضعه دلك في منزلة الرجل الغير نمكر لفضهم، ممّا ساعد في خلق آلية إقناعية رفعت من شأن ومكانتِهم عند النبي ﷺ، والتي لا تقاس بالغانم عكس المؤلفة قلوبهم .

فالايتوس في البيان النبوي - كما نعلم- مسلّم به سلفاً، نظراً لمكانة النبي، وقداسة نصوصه الخطابية التي ينطق بها، فهو الذي لا يتكلم إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة[16]. كما يقول الجاحظ، لذلك نجده يطلع بوظيفة حجاجية من خلال الصور التي رسمها النبي ﷺ لنفسه.

وبهذا يُصبح الإيتوس معطى سابق ينهض على منزلة الخطيب في المجتمع، وما يشتهر به من أخلاق وسمعة طيبة بين الجمهور، ولاسيما في المجتمعات الشفاهية التي لم ترقى للتدوين تجد نفسها مقيّدة بالشخص أكثر ممّا هي مقيّدة بالحجج والبراهين[17].

البناء الحجاجي للغوس النبوي: اهتمت البلاغة في ثوبها المعاصر بمجمل الآليات الخطابية الإقناعية المكونة للخطاب، سواء كانت بلاغية أو منطقية أو الغوية أو التداولية، وفي ضوء هذه المقاربات سنحاول استجلاء الإمكانيات الحجاجية المسُخرة في خطبة النبي صلى الله عليه وسلّم، آمِلين الكشف عن التقنيات المستعملة في عمليتي لإقناع الإقناع والتداول.

أ- الوقائع le faits: تمثل الوقائع ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس بحيث لا تكون عرضة للدّحض أو الشك[18]، وقدْ استعمل النبي صلى الله عليه وسلّم هذه الوقائع كنقطة انطلاق لحجاجه، وتتمثل في قوله: (ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم) فكانت الاستجابة بقولهم (قالو بلى الله ورسوله أَمَنَّ وأفضل)، فالوقائع المستعملة من طرف النبي ليست عرضة للشك ولا للمساومة من طرف الأنصار، لذلك نجد التسليم الفوري من قِبل الأنصار.

ب- القيّم les valeurs: إنّ القيم عليها مدار الحجاج بكلّ ضروبه...وغداء أساسيا يُعوّل عليه في جعل السامع يذعن لما يُطرح عليه من آراء[19] لذلك نجد بعض الخطب تميلُ إلى تحقيق الإقناع استنادا إلى منظومة من القيّم السائد في المجتمع باعتبارها أفكار مشتركة تحظى بالإجماع، لذلك نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم يبني نسق خطابه على مجموعة من القيّم، وهي (الضلال، الهداية، الفقر، الغنى، العداوة، المحبة) قيّم اتسمت بالتقابلية في بناءها، ممّا أكسبها قوّة ونجاعة ونفاذ في ذهن المتلقي، إذْ عمد النبي صلى الله عليه وسلّم إلى تذكير الأنصار بما كانوا عليه من قيّم شنيعة، وما أصبحوا عليه من قيّم رفيعة.

ج- التراتبيّات: يعتمد الحجاج على تراتبيّات تكون مجردّة تارةً، وملموسة تارة أخرى، مثل الإنسان أسمى من الحيوان، والآلهة أسمى من الإنسان[20].

وقد استعمل النبي ﷺ مثل هذه الحجج التي تخضع لمنطق التراتب في قوله (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم ؟) فتخييرهم بين الرجوع بالغنائم والرجوع برسول الله وضعهم في حالة تسليم وخضوع مطلق، لأن منطق التراتب يقتضي اختيار النبي ﷺ باعتباره أفضل من الغنائم، لذلك حملت هذه الحجة المُساقة الأنصار على الاقتناع والإذعان بوجهة نظر الرسول ﷺ في تقسيم الغنائم.

د. الحجج شبه منطقية التي تعتمد البُنى المنطقية

التناقض وعدم الاتفاق incompatibilitè: وهي أنْ تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي لأخرى ونقض لها، بحيث يتحتّم على المتلقي اختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى[21].

ونجد النبي ﷺ يضع الأنصار أمام أطروحتين متعارضتين، تقتضي من الأنصار اختيار واحدة فقط، ويتجلى ذلك في قوله: (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم ؟)، فهذا الصنف من الحجج يضع المتلقي أمام خيار واحد، يُقصي بموجبه الخيار الآخر، لذلك نجد أنّ النبي ﷺ يستفز الأنصار بوضعهم أمام موقف خياراته محدودة إن لم نقل أنها منعدمة، فالنتيجة بالطبع ستكون اختيار العود بالنبي ﷺ.

الحجة القائمة على العلاقة التبادلية (règle réciprocité): تستمد الحجج ذات العلاقات التبادلية قوتها من مبدأ تسوية المطابقة بين حالتين مترابطتين داخل علاقة ما[22]. وقد استعمل النبي ﷺ مثل هذه الحجج لتِبيين فضله على الأنصار، وتبيِين فضلهم عليه من باب العدل (ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله.. والله لو شئتم لقلْتم، فلصدَقْتُم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذِبا فصدّقناك...) فقد ماثل النبي

ﷺ بين حالة الأنصار وحالته، فكانت الهداية من الله ومنهُ، والنصرة من الله والأنصار، فالفضل متبادل ذو طابع شبه منطقي تبادلي بين الخطيب والمتلقي. ولو أنّ النبي ﷺ ذكر فضله على الأنصار ولم يذكر فضلهم عليه لانهارت الحجة، وضعفت فعاليتها.

الحجة السببية البراغماتيّة: وهي حججة ترمي إلى أنّ يُستخلص من حدث مّا وقع، سبب وقوعه[23] وقد استعمل النبي ﷺ هذا النوع من الحجاج في قوله: (أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوما ليُسلموا) فنجد النبي صلى الله عليه وسلّم يُبرر إعطائه الغنائم للمؤلفة قلوبهم بحجة أنه يُريد إسلامهم إيمانهم، أي اختزلت السبب في نتائجه المترتبة عنه، وقد تحقق ذلك عن طريق الرابط السببي (اللام) الذي ساعد على المرور من أسباب - توزيع الغنائم على المؤلفة قلوبهم- إلى النتائج -المتمثلة في إسلامهم-، وهذا ما ساهم في تثمين تصرف النبي صلى الله عليه وسلّم. ويمكن الاصطلاح على هذا النوع من الحجج بحجج **الغائية**[24] والتي تؤسس على الفكرة القائلة بأنّ قيمة الشيء مرتبطة بالأهداف المراد الوصول إليها.

حجة الاتجاه l argument de direction: يُستعمل هذا النوع من الحجج عندما تكون هناك مسافة تفصل بين مسلمات المستمع ودعاوى الخطيب، فيتم التقريب بينهما بالتدريج، فبدل الإنتقال مباشرة من (أ) إلى (د)، يقوم الخطيب بنقل المخاطَب إلى (ب) ثمّ إلى (ج) ليصل إلى (د)[25]، ونلتمس هذا النوع من الحجج في الانتقالات التي قام بها النبي ﷺ في خطابه، الذي مرّ عبر مراحل، بدأ فيها بتذكر الأنصار بفضله عليهم، ثمّ انتقل إلى تذكيرهم والإقرار بفضلهم عليه، ثمّ ذكرهم بعودته في رحالهم، وعودة المؤلفة قلوبهم بالشاة والبعير، ثمّ أخيراً بررّ لهم تصرفه الذي كان يهدف من وراءه إلى تأليف القلوب والدعوة إلى الإسلام. فالحجج أو المقدمات التي اعتمدها النبي صلى الله عليه ويسّم كلّها تسير في إتجاه واحد يهدف إلى إقناع الأنصار بالقرارات التي اتخذها في حق الغنائم.

الاستدلال بواسطة التمثيل l analogie: يُعدّ الاستدلال آلية مهمة يتوسل بها الخطاب الحجاجي بهدف تحقيق عمليتي الإقناع والتداول، وغالبا ما يكون عن طريق (استنباط يُراد منه التدليل على صحة نتيجة، اعتمادا على مقدمات معترف أو مسلم بصحتها)[26]، فالاستدلال عملية عقلية محضة، يتم من خلالها الانتقال من مقدمات مسلم بها، إلى نتائج من شأنها إثبات رأي ما ودفع المتلقي إلى التسليم به للاقتناع بمضمونه.

والمتأمل في خطاب النبي ﷺ في الأنصار، يجد مجموعة من الاستدلالات التي اعتمدها النبي في بناء خطابه وتنظيمه وفق أسس عقلية محضة، من ذلك قوله: (ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالهم؟) فالنبي صلى الله عليه وسلّم اعتمد هنا على الاستدلال الخطابي ذو النتيجة المضمرة، ويمكن التمثيل لها بـ :

- المقدمة الكبرى ⟵ العودة بالشاة والبعير.
- المقدمة الصغرى ⟵ العودة برسول الله ﷺ.
- النتيجة (مضمرة) ⟵ العودة برسول الله أفضل من العودة بالغنائم.

فالعملية هنا ذات طابع استدلالي محض، أُضمرت من خلاله النتيجة لأنها معروفة وبديهية تمثلت في أفضلية عودة الأنصار برسول الله ﷺ إلى رحالهم، فتسخير مثل هاته الآليات الاستدلالية في الخطاب من شأنه تقوية طرح الخطيب، وتحقيق الأهداف التداولية للخطاب بدفع المتلقي نحو اعتقاد ما يطرح أمامه من أفكار والتسليم بها. وهذا ما تحقق في الأنصار عندما رضوا بقسمة النبي ﷺ فيهم.

البعد الحجاجي لخاتمة الخطبة: تأتي الخواتيم في الكثير من الأحيان موافقة لموضوع الخطبة وغرضها، فهي جزء الذي يُلخص المقاصد التي رسمها الخطيب لخطابه، لذلك تُعد من الآليات التي يحصل بها التأثير والإقناع.

وقد اختتم النبي ﷺ خطبته في الأنصار بالدعاء لهم بقوله: (اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار) فجاءت موافقة لمضمون الخطبة في موضوعها العام، مبيّنة لفضل الأنصار ومكانتهم التي يحضوْن بها عند النبي ﷺ، ويتجلى بعدها الحجاجي في أنها آخر ما قيِل، وآخر ما يرسخّ في ذهن المتلقي، فإذا كان للخاتمة وقع حسن انسحب ذلك على باقي الخطاب، وإذا كان لها وقع سيء ساء الأثر وتعثر المقصد[27].

الموجهات اللغوية الحجاجية المدرجة في الخطبة:

- **البعد الحجاجي للموازنات الصوتية في الخطبة:** تكشف هذه الخطبة عن ثراء صوتي إيقاعي مصدره تناظر المكونات الصوتية محققةً بذلك توازنًا تركيبيا تام،فينجم عن هذا التركيب طاقة صوتية لافتة قائمة على التعارض والتضاد بتوظيف آليتي الطباق والمقابلة، وكان ذلك على النحو التالي:

- ضلالاً ⟵ الهداية.
- العداء ⟵ الألفة.
- الفقـر ⟵ الغنى.
- الكذب ⟵ الصدق.
- الخذلان ⟵ النصرة.

لقد استعان النبي صلى الله عليه وسلّم بمثل هذه البنية التناظرية لإكساب خطابه قوةً تأثيرية وطاقة إقناعيّة تساعده على ترسيخ مضمون الخطاب، وتحقيق مقاصده التداوليّة ومآلاته الحجاجيّة المسطّره من قِبله، فالتكافؤ الذي أحدثه على مستوى البنية الخارجية للخطاب ساهم بشكل كبير في تفاعل المتلقي مع الخطاب.

كما لجأ النبي ﷺ إلى بلاغة السجع والازدواج، وذلك نظراً لما تحتوي عليه من طاقة صوتية إيقاعية تضمن التأثير في المتلقي من خلاله حمله على الإنتباه والتفاعل مع ما يُعرض عليه.

وتتجلى تقنية السجع والازدواج في قول النبي: (أتيتنا مكذِبا فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأسيناك) فما يُميّز الفقرة هنا هو قيامها على نظام الموازاة بين التراكيب النحوية، واستخدام السجع كآلية ساهمت في ضبط التناظر القائم بين المعادلات النحوية، وضمان تماسك أجزاء الخطاب، وتوجيه نحو هدف واحد، وهو شدّ إنتباه المتلقي والسيطرة عليه من خلال الموسيقي المسخرة في الخطاب، فالتساوي العددي للعبارات مع توافقها في الفواصل، من شأنه تحقيق المقاصد التداولية للخطاب والمتمثلة في شد انتباه المستمع ودفع نحو التصديق بما يعرض عليه من أفكار.

- **القسم:** لا تنظر الدراسات التداولية إلى القسم بحدّ ذاته، وإنما يُراد الغرض التواصلي الذي يدفع المخاطَب إلى الوثوق بكلام المخاطِب[28]، فيلجأ المتكلم في الكثير من الأحيان إلى توكيد كلامه عن طريق القسم الذي يُعدّ فعل حجاجي يُثبت من خلاله الخطيب مجموعة من القضايا والأفكار.

وقد تحققت الأبعاد التداولية لهذا الأسلوب في قول النبي ﷺ: (فو الذي نفس محمد بيده) فاستطاع من خلال هذا القسم توجيه الملفوظ وُجهة حجاجية نظراً لليقينية التي يتمتع بها عند المتلقي، ولاسيما أنه صادر من النبي صلى الله عليه وسلّم ممّا أكساه قيمة حجاجية إقناعية مضمونة النتائج.

- **البعد الحجاجي للتركيب الاستفهامي:** يرى ديكرو أن الغاية من الاستفهام هي حصر المخاطَب وإلزامه بإجابة محدّدة يمليها المقتضى الناشئ عن الاستفهام، فيتّم توجيه الحوار الذي نخوضه معه إلى الوُجهة التي نريد، فالاستفهام في الكلام غالبا ما يأتي لإجبار المخاطَب على الإجابة وُفق ما يرسمه له البعد الاستفهامي الإقتضائي[29].

ونجد هذا النوع من الاستفهام في قول النبي ﷺ: (ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم) فالمخاطب في مثل هذا النوع من الأسئلة يكون مساهماً في إنتاج الحجج وصناعتها، ثمّ يعود ليخضع لها

ويتقيّد بها، فالقيمة الحجاجية لمثل هذه النماذج الاستفهامية أنّ أجوبتها معلومة عند كل من الخطيب والمتلقي بحيث لا يختلفون في لأنها موجودة سلفاً في السياق الاجتماعي. ولا يخالفونه فيها نظراً لطبيعتها التقريرية، لأنّ النبي في الحقيقة لا يطلب إجابات، بل يبحث عن إقرار المتلقي، لذلك نجد أن إجابات الأنصار كانت حجة عليهم، وإفحاما لهم، واعترافا منهم بفضل النبي بقولهم: (لله ولرسوله المنّ والفضل).

- **الروابط الحجاجية في الخطبة:** اقترح ديكرو وصفا جديداً لعمل الروابط اللغوية، وذلك من خلال إعطائها بعداً حجاجيا، نظراً للتماسك والتسلسل الذي تُحققه في الخطاب، وغالبا ما تقوم الروابط الحجاجية على الربط بين قولين، أو بين حجتين، أو أكثر[30] وتكون هذه الأقوال المترابطة برابط واحد، تسير في اتجاه واحد خدمةً لنتيجة واحدة يسعى الخطيب لإقناع المتلقي بها، كما تُعدّ الروابط الحجاجية، (المؤشر الأساسي والبارز والدليل القاطع على أن الحجاج مؤشراته في بنية اللغة)[31].

ويُكثر النبي ﷺ من استعمال الرابط الحجاجي (الواو) في خطبته، وذلك نظراً للتنسيق والترتيب الذي تقوم به هذا الرابط داخل الخطاب، ويتجلى ذلك مثلاً في قوله: (ألم أتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم)، ويكمن البعد الحجاجي للرابط (الواو) هنا، في الربط بين الوحدات الدلالية في إطار استراتيجية حجاجية تخدم نتيجة واحدة، يُريد النبي صلى الله عليه وسلّم إيصالها للأنصار، فالحجة (أ) والحجة (ب)، والحجة (ج) في القول أعلاه والموصولة بالرابط (الواو) جاءت لخدمة نتيجة واحدة مضمرة تتمثل في فضل النبي على الأنصار.

- **العوامل الحجاجية في الخطبة:** تطلع العوامل الحجاجية بمهمة (حصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما)[32]، فتساهم بذلك في خدمة نتيجة واحدة، وتوجيه جُل الحجج نحوها، كما تساهم في إقصاء دلالات خطابية معارضة، لصالح دلالات أخرى يريد الخطيب إثباتها، لذلك يطلع العامل

الحجاجي بتقوية درجة التوجيه في الخطاب، من خلاله ربطه بين الحجة والنتيجة[33].

يقول النبي ﷺ: (لولا الهجرة لكنت إمرءًا من الأنصار)، فالمتأمل في العامل الحجاجي (لولا) يجد أنه يضطلع بوظيفة استدلالية قامت بتوجيه الخطاب نحو دلالة معينّة، مفادها بأن النبي ﷺ ليس من الأنصار بل من المهاجرين، ويمكن التمثيل لذلك بـ :

- المقدمة الكبرى ←لولا الهجرة لكنت إمرءًا من الأنصار.
- المقدمة الصغرى (مضمرة)←لكنني مهاجر.
- النتيجة (مضمرة)←لست من الأنصار.

فالعامل الحجاجي (لولا) قام بحصر وتقييد وُجهة الخطاب نحو دلالة واحدة معيّنة مقصودة مفادها أنّ النبي ﷺ ليس من الأنصار لأنه مهاجر، فالعملية الاستدلالية التي ساهم في بناءها هذا العامل الحجاجي (لولا) قامت بإقصاء دلالة أنّ النبي ﷺ شخص من الأنصار، وتقوية نتيجة أنّ النبي شخص من المهاجرين.

الخاتمة

لقد أبانت المقاربة البلاغية الحجاجية اللغوية عن مرونة كبيرة في التعامل مع النصوص الخطابية التراثيّة، وذلك نظراً لما توفرهُ من إمكانات تتيح لنا الكشف عن أهم المرتكزات التي ينبني عليها جنس الخطابة في المدونة التراثيّة، وقد قادتنا قراءتنا لخطبة النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الخروج بالنتائج التاليّة:

- نجاعة المقاربة البلاغيّة في التعامل مع مختلف الخطابات في شقها الحجاجي.
- تَوفُر خطبة النبي ﷺ على طاقات حجاجيّة، وآليات استدلاليّة مكّنت خطابه من النفاذ إلى كيانات الأنصار.

- تحقيق النبي ﷺ لأهدافه التداوليّة، وذلك باقتناع الأنصار بالقرارات المتخذة من قبله، وخير دليل على ذلك بكائهم وتسليمهم بقسمة النبي

الهوامش:

[1]- **إقناع persuasion** هو قصد المتحدَّث إلى إحداث تغيير في الوقف الفكري أو العاطفي عند المتلقي، هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر، محمد العمري، أفريقيا الشرق، 1998م، ص102

[2]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط2، 2007، ص 25.

[3]- يُنظر، عبد الله صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات – مسكيلياني للنسر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص11.

[4]- **pragmatique** هي دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المرسل، في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قاله، يُنظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية –، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، 2004م، ص22.

[5]- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات – ص13.

[6]- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2004م، ص68.

[7]- يُنظر، رشيد الراضي،الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، عالم الفكر، الكويت، مج، 34، سبتمبر، 2005 ص255.

[8]- يُنظر، شكري البخوت، نظرية الحجاج في اللغة، مقال ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسيّة، ص352.

[9]- يُنظر، رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، ص225.

[10]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط، 1، 2006، ص8.

[11]- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السيابي (نموذج إرشلدي)، ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، إشراف، محمد مشبال، دار العين للنشر، الاسكندرية، 2013، ص26.

[12]- يُنظر، ابن هشام الأنصاري، السيرة النبوية، تح وتع، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1990، بيروت، ج،4/ص138.

[13]- نفسه، ص 131.

[14]- نفسه، ص 138.

[15]- مصطفى الغرافي، بلاغة الخطبة، ضمن كتاب بلاغة النص التراثي، إشراف، محمد مشبال، دار العين للنشر، الاسكندرية، 2013، ص50.

[16]- يُمظر، أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبين، تح، درويش جودي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ج2/ص244.

[17]- يُنظر، إيمانويل دانبلون، بلاغة الإحتجاج، تر، حسن طالب، مجلة علامات المغربية، ع، 23- 2005، ص130.

[18]- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر، ط، 1، 2011، ص24.

[19]- نفسه، ص26.

[20]- الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة، ط،1، ليبيا، 2014، ص48.

[21]- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، ص42.

[22]- يُنظر، الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص64.

[23]- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، ص 50.

[24]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، ط، 1، الأردن، 2011، ص221.

[25]- يُنظر، الحسين بنوهاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص75.

[26]- محمد النويري، الأساليب المغالطية –مدخل إلى نقد الحجاج-، مقال ضمن كتاب، الحجاج في التقاليد الغربية، حمادي صمود، ص431.

[27]- يُنظر، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح ; محمد الحبيب ابن خوجة، ص285.

[28]- يُنظر، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، دار الفارابي، تونس، ط،1، 2011، ص320.

[29]- يُنظر، إبتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، ص 304.

[30]- يُنظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط، 1، 2006، ص26.

[31]- نفسه، ص 55.

[32]- نفسه، ص27.

[33]- يُنظر، عزالدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقص، 2011، ص37.